و للأزمات فوائد !

من المستغرب أن يذكر الإنسان فوائد للأزمات، فالأزمات إذا ذُكرت، لا يُذكر معها في الصورة الذهنية إلا الشدة والضيق والضنك وشظف العيش وقسوة الحياة. وهي كذلكولا شك، إلا إنها كذلك إذا أُحسِن إدارتُها، يمكن أن تُسفر عن مجموعة من الفوائد والمنافع والمصالح.

وهذا ما حدث في المجتمع النبوي، حيث كشفت مجموعة من الأزمات التي تعرض لها المسلمون عن فوائد ومنافع، عادت على المجتمع بالخير والنفع، ونذكر هنا بعض هذه الفوائد، كما نذكر معها المواقف التي تدل عليها من واقع المسيرة النبوية.

1- إعادة اكتشاف الإنسان قدراته الكامنة : قد يحسب الإنسان أنه ضعيف، لا يتحمل المشاق، ويوطن نفسه على ذلك، إلا أن مروره بالأزمات، يوقفه على قدرات كامنة في ذاته، لولا ما تعرض له من هذه الأزمة، لما اهتدى إلى كوامن هذه القوى في ذاته.

ومن المواقف الدالة على ذلك، ما كان من أبي بصير ، حينما فر بدينه من سجون الشرك في مكة المكرمة، والتحق برسول الله ﷺ في المدينة، فبعثت قريش في إثره اثنين من رجالها إلى رسول الله، ليرجعا به، تنفيذًا لشرط المعاهدة، فقال رسول الله ﷺ لأبي بصير: يا أبا بصير، إنا قد أعطينا هؤلاء القوم ما قد علمت، ولا يصلح لنا في ديننا الغدر، وإن الله جاعل لك ولمن معك من المستضعفين فرجًا ومخرجًا، فانطلق إلى قومك.

فقال أبو بصير: يا رسول الله، أتردني إلى المشركين يفتنونني في ديني؟ قال: يا أبا بصير، انطلق، فإن الله سيجعل لك ولمن معك من المستضعفين فرجًا ومخرجًا. فانطلق معهما.

فهذه أزمة شديدة تعرض لها أبو بصير، إلا أنه استطاع أن يقتل أحد الرجلين، وفر الثاني خوفًا منه، ليلحق هذا الأخير برسول الله ﷺ شاكيا له ما حدث من أبي بصير.

ولما علم أبو بصير أن رسول الله ﷺ سيرده للمرة الثانية إلى مكة، لم يدخل المدينة، وعسكر بين مكة والمدينة، ليكون خارج النطاق الجغرافي للاتفاق، ولحق به كل من كان مثله ممن يريد الإسلام وهو من قريش، فاجتمع عند أبي بصير عصبة قوية، فما يسمعون بعير لقريش خرجت إلى الشام إلا اعترضوا طريقها وقتلوا من فيها، وأخذوا الأموال التي كانوا يتجرون بها، فأرسل المشركون إلى النبي ﷺ يناشدونه بالله والرحم لما أرسل إلى أبي بصير ومن معه، ومن أتاه منهم فهو آمن، وتخلوا في ذلك عن أقسى شروطهم التي صبوا فيها كؤوس كبريائهم، فذلت قريش من حيث طلبت العز. ولا شك أن أبا بصير فوجيء من نفسه بهذه القوة العقلية والتخطيطية والجسدية، والسبب في ذلك تعرضه لهذه الأزمة، وإحسانه إدارتها.

2-تغير معادلات وموازين القوى : لو استطاع الإنسان في أثناء تعرضه للأزمة أن يخرج منها غير مكسور، فإن ذلك في حد ذاته سيكون انتصارا له، وخصما من رصيد قوى خصومه الذين افتعلوا معه هذه الأزمة، ومما يدل على ذلك من السيرة، أن المسلمين في المدينة بعد تعرضهم لغزوة الأحزاب، وخروجهم منها دون انكسار، تغيرت بعدها موازين القوى لصالحهم، فقال النبي ﷺ : «الآن نغزوهم ولا يغزوننا، نحن نسير إليهم»[1].

فقد كشفت هذه الأزمة أن أية قوة من قوات العرب لا تستطيع استئصال القوة الصغيرة التي تنمو في المدينة، لأن العرب لم تكن تستطيع أن تأتي بجمع أقوى مما أتت به في الأحزاب.

3- التفكير في استراتيجيات جديدة : وشاهد ذلك من السيرة، ما أشار به الحباب بن المنذر على رسول الله ﷺ يوم بدر، من تغوير الآبار من جهة قريش، وإبقاء بئر واحدة يشرب منها المسلمون وحدهم، وهذا لا شك ابتكار جديد، واستخدام تضاريس المكان لصالح المسلمين. فالمشركون مطمئنون إلى وجود عدة آبار صالحة للشرب، لكنهم فوجئوا وقت شدة العطش أثناء المعركة أن هذه الآبار جميعا قد غورت، وأنهم ليس معه مدد من الماء إلا ما كان في قربهم وأسقيتهم، وكفى بذلك عاملا نفسيا وبدنيا، يحسم المعركة لصالح المسلمين.

ولولا شح عتاد المسلمين وأسلحتهم وعددهم لما فكروا في الاستفادة من تضاريس أرض المعركة، واستكشاف أي سبب ليكون جزءا من العدة التي تعوزهم.

4- تثبيت الفكرة وإقرارها ونشرها : وتلك الفائدة يمكن تلمسها من قصة أصحاب الأخدود، حيث ضاق الأمر بالغلام، حينما واجهه الملك بكامل قوته وجيشه ودولته، وأصر على قتله، فجعل الغلام من هذه الأزمة سببًا في نشر فكرة الإيمان بالله الأحد في أوساط المجتمع، فقد قال الغلام للملك: إنك لست بقاتلي حتى تفعل ما آمرك به، قال: ما هو؟ قال: تجمع الناس في صعيد واحد، وتصلبني على جذع، ثم خذ سهما من كنانتي، ثم ضع السهم في كبد القوس، ثم قل: بسم الله رب الغلام، ثم ارم، فإنك إذا فعلت ذلك قتلتني، فجمع الناس في صعيد واحد، وصلبه على جذع، وأخذ سهما من كنانته، ثم وضع السهم في كبد القوس، ثم قال: بسم الله رب الغلام، ثم رماه، فوقع السهم في صدغه، فوضع يده في صدغه، في موضع السهم، فمات، فقال الناس: آمنا برب الغلام، آمنا برب الغلام، آمنا برب الغلام، فأُتِيَ الملك فقيل له: أرأيت ما كنت تحذر؟ قد والله نزل بك حذرك، قد آمن الناس.[2]

5- نشوء أنظمة للإنذار المبكر : من فوائد الأزمات أنها تجعل الفريق الذي يدير الأزمة في حاجة إلى استحداث وظائف، وإناطة مهام بالبعض ، هي من الضرورة بمكان، كي يستطيع صانع القرار اتخاذ القرارات المناسبة، وهذا يحتاج منه أن يكون لديه أنظمة إنذارات مبكرة، لكي يأخذ قرارات على ضوئها، ويمكننا أن نلحظ ذلك أثناء هجرة النبي ﷺ، حيث اختبأ في غار (ثور) لقربه من مكة، ليتمكن من الوصول إلى ما تفكر فيه قريش وما تتخذ من خطط للحاق بالنبي ﷺ، ولهذا اتخذ شابًا، هو عبد الله بن أبي بكر ليأتي له بأخبار القوم، جاء في وصفه" غلام شاب ثقف لقن، يدلج من عندهما بسحر، فيصبح مع قريش بمكة كبائت، فلا يسمع أمرا يكادان به إلا وعاه، حتى يأتيهما بخبر ذلك حين يختلط الظلام"[3].

[1] – صحيح البخاري، رقم (4110).

[2] – رواه مسلم، رقم (3005)

[3] – صحيح البخاري (3905)، وقد أفدنا في كتابة هذا المقال من كتاب منهج السنة النبوية في إدارة الأزمات لصاحبه، صلاح خليل محمد قشطة.